

تقديم إشكالي:

يبدو للمتأمل الفاحص للفلسفة والدين أن الأمر يتعلق بنمطين من التفكير: نمط ديني يستند على جملة مسلمات، ومعتقدات مترابطة ومطلقة، تؤسس لتصور تلازمه القداسة نظرا لمصدره الإلهي المفترض، وفي هذا النمط، المحكوم بالجواب الواحد، هناك ثنائيات متلازمة لا يمكن أن يكتسب إيمان المرء كماله المفترض بدونها؛ فالدين مثلا اعتقاد وسلوك، عقيدة وشريعة... وهناك نمط ثان من التفكير، أي فلسفي، لا يمكن أن نتصور وجوده قائما بمعزل عن تجاوز لليقينيات، إن نحن نظرنا إليه من خلال تاريخ الفلسفة، وفي هذا النمط، المحكوم بتعدد الأجوبة، تطفو على سطح الخطاب الفلسفي كل من الدهشة، والشك، والسؤال، والنقد، والتفكيك.. والواقع أن الحديث عن الفلسفة والدين لا تمليه فقط المفارقات النظرية، بل ارتباط كل منهما بالإنسان الفاعل والمنفعل/ المفكر والمتدين، وذلك من حيث كون حركة تطور تفكيره – أي الإنسان – عبر التاريخ، وتطور أشكال ممارسته التاريخية وإفرازاتها على المستوى الثقافي والاقتصادي والسياسي اصطدم حينها ببواعث للفعل، وأحيانا أخرى بكوابح وعوائق أخرت وكبحت تقدمه.

فبعد ظهور الفلسفة الإغريقية، وانتعاش التفكير الفلسفي إلى حدود القرن الخامس بعد الميلاد، سيبدأ تراجع للفلسفة لصالح الدين الذي عرف مدا متزايدا. فاختلقت الرؤى بين أغلبية متدينة تنبذ الفلسفة بالمطلق، مدفوعة في ذلك بتأثير لطبيعة غايات رجال الدين، وانسجاما وطبيعة المعتقدات الراجحة، وبين أقلية متتورة حاولت، خلال هذه الفترة، أن تبرر أحقية الفلسفة في الوجود داخليا، أي من داخل الدين، من حيث كونها خادمة له ولا تتعارض معه. وهناك فلاسفة اهتموا بمقاربة إشكالية العلاقة بين الفلسفة والدين يمكن ذكر البعض منهم: ابن ميمون في الديانة اليهودية، توما الأكويني في الديانة المسيحية وابن رشد في الديانة الإسلامية، وهو الذي سنشتغل على موقفه التوفيق.

بالمقابل ومنذ بداية تراجع العصور الوسطى، وإلى حدود لحظات انهيار السلطة التامة للكنيسة، نتيجة للتحولات العلمية والفكرية والسياسية سنطرح إجابة مغايرة، تماما، نتحدث عن انفصال النشاطين، أي الفلسفة والدين، من حيث منطلقاتهما وغاياتهما. وهو ما سنعرض له من خلال موقف إسبينوزا. لكن قبل ذلك، فلنطرح إشكالية هذه المقالة: هل يمكن أن يكون ثمة اتصال بين نشاطين إنسانيين يحكمهما الاختلاف، أم أن الانفصال بينهما ضرورة تملئها مصلحة الفلسفة ومصلحة الدين ذاته؟ أي تصور للفلسفة والدين ذاك الذي يتحدث عن التوفيق بين الحكمة والشريعة؟ وما الذي يبرر انفصال الفلسفة والدين نظريا وفلسفيا؟ وإذا كان هذا النقاش قد طرح في حقبتين زمنييتين مختلفتين؛ أي خلال العصور الوسطى، وخلال اللحظة الحديثة، فهل يمكن أن نعتبر أن هذا الإشكال حسم في أمره أم أنه لازالت هناك مبررات نظرية وعملية لطرحة؟

للبحث في الإشكالية موضوع اشتغالنا؛ تم اختيار نموذجين جمع بينهما التفلسف باعتباره نشاطا تأمليا ونقديا هادفا، وفرقتهما الخلاصات والاستنتاجات التي توصل إليها كل فيلسوف على حدة. فالفيلسوف الأول، هو ابن رشد صاحب كتاب "فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال". وكما يبدو للقارئ، منذ الوهلة الأولى، من خلال العنوان، فإننا سنكون أمام قول يؤسس لاتصال مفترض لمجال إيماني تعبدي مع مجال تأملي نقدي.

وأما الفيلسوف الثاني، فهو باروخ إسبينوزا، مؤلف كتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة". وما يوحى إلينا به الكتاب من خلال عنوانه الفرعي أن الموضوع يتمثل في البرهنة على أن "حرية التفلسف لا تمثل خطراً على التقوى ولا على سلامة الدولة". لذلك يتوجب مرة أخرى النطق بالقول المرجح، والتفصيل فيه لإبراز الانفصال بين مجال الإيمان/ مجال التقوى والطاعة، وبين مجال الفلسفة/ مجال البحث عن الحقيقة عبر تناول موضوعات في منتهى القداسة وتشمل النبوة، الأنبياء، المعجزات، تفسير الكتاب المقدس.. إلخ

وقد ارتأينا أن نعرض بشكل مركب ومكثف لبعض مواقف ابن رشد وإسبينوزا، مع البحث عن التقاطعات والاختلافات الممكنة بينهما في الإجابة عن الإشكال السالف ذكره. لنختم، بعد ذلك، محاولتنا الأولى هاته للبحث في إشكالية الفلسفة والدين بين الاتصال والانفصال في أفق تطويرها والتوسع فيها مستقبلاً ارتباطاً بالأسئلة المفتوحة وفق خصوصية هذا الموضوع.

ابن رشد وإسبينوزا في التاريخ:

ظل الدين خلال القرون الوسطى شبه مهيم على كل مظاهر الحياة، وساد خلالها تصور مفاده أن الفلسفة خادمة للدين لدرجة أن هذه الحقبة لا تحظى بنفس الأهمية التي تحظى بها الفلسفة الإغريقية أو الحديثة بالنسبة لمؤرخي الفلسفة. ويقدم لنا محمد أركون في مقالة معنونة بـ "ابن رشد رائد الفكر العقلاني والإيمان المستنير" معطى أولياً يمكن استثماره من أجل تأطير فلسفة ابن رشد في عموميتها يتمثل في تعاضد الموقع السياسي والاجتماعي للفقهاء. فنتيجة لـ "الضغط المتزايد لعملية استرجاع إسبانيا من قبل المسيحيين تم الشروع في تغذية إيديولوجيا كفاحية (الجهاد) من أجل تجييش الناس. ما شجع على ازدياد أهمية الفقهاء والدعاة والوعاظ الشعبيين"¹، سواء داخل الغرب الإسلامي، أو داخل الأندلس. كما يوجز ميكال فوركادا² في ندوة دولية نظمت بمناسبة مرور ثمانمائة سنة على وفاة ابن رشد الملامح العامة للبيئة العلمية التي أثمرته نوردها على شكل عوارض:

- عاش ابن رشد في فترة مهمة من تاريخ العلوم الأندلسية فيما يتعلق بالفلسفة والطب وعلم الفلك،
- أكمل ابن رشد تأهيله العلمي في إشبيلية إحدى العواصم العلمية التي برزت في عصر ملوك الطوائف،
- أثر كل من ابن طفيل وابن زهر في ابن رشد (كان ابن طفيل أستاذاً لابن رشد في الطب والفلك)،
- كان ابن باجة نموذجاً لابن طفيل وابن رشد، وما تفاسير ابن رشد استمراراً للتفسير التي بدأها ابن باجة،
- إلى جانب ابن باجة وابن طفيل كان ابن رشد طبيبياً، مقرباً من السلطة، التف حوله عدد كبير من التلاميذ، ومهتما بعلم الفلك...

¹ محمد أركون: ابن رشد رائد الفكر العقلاني والإيمان المستنير؛ ترجمة: هشام صالح، عالم الفكر، العدد الرابع – أبريل/ يونيو 1999، ص 11

² ميكال فوركادا: ابن رشد في السياق العلمي الأندلسي؛ ترجمة ناصر ونوس، نفس المرجع: ص 200-201

وفي الوقت الذي طرح فيه ابن رشد تصوره التوفيق بين الحكمة والشريعة، وذلك انسجاماً وروح التوفيق السائدة خلال العصور الوسطى بدأت، بأوروبا، فترة انتقال امتدت منذ بداية تراجع العصور الوسطى إلى حدود القرن السابع عشر، ولقد أوجز راسل هذه الحركات المحددة لفترة الانتقال هاته في أربع حركات كبرى هي:³

- النهضة الإيطالية،

- الحركة الإنسانية،

- الإصلاح الديني،

- إحياء الدراسات التجريبية.

وابتداء من القرن السادس عشر أخذ جاليليو بنظرية مركزية الشمس، ثم طرح نيوتن القانون العام للجاذبية وتم أيضاً في القرن السابع عشر تطوير فرانسيس بيكون لمنهج جديد يتمثل في الاستقراء. وقد جمع ديكارت بين الاهتمام بالرياضيات والاهتمام بالمنهج وكانت فلسفته موضوع كتاب ألفه باروخ إسبينوزا عنوانه "مبادئ فلسفة ديكارت". وبذلك "تم الإصرار على معارف إسبينوزا (الفعلية) في الرياضيات والفيزياء. فإن لم يكن مكتشفاً مثل ديكارت، هو غنز، أو لايبنتز، فهو يعرف علوم عصره وهو يتأمل مسيرتها ونتائجها".⁴

وساهمت هذه الحركات والعوامل مجتمعة إضافة إلى اختراع المطبعة -الذي يعد من بين التطورات المهمة- في انتشار الأفكار على نطاق واسع؛ إذ أصبح الكتاب المقدس متوفراً للجميع، وهو ما أدى إلى النظر في إشكالية الفلسفة والدين من منظور جديد، خصوصاً بعد تجريد الكنيسة من مكانتها الرمزية والاعتبارية لأنها كانت تمارس الوصاية على أمور العقيدة. وهذا ما يفسر دفاع إسبينوزا عن حق كل فرد في تفسير الكتاب. لقد انعكست معرفة إسبينوزا العلمية، والتحويلات العلمية والسياسية والثقافية على نظريته للكتاب المقدس، وللفلسفة والدين، ورجال الدين والدولة التي أفرد لها كتاب "رسالة في اللاهوت والسياسة" الذي هو موضوع دراستنا وفيه، ومن خلاله، يضع أسس منهج تفسير الكتب المقدسة ويتجاوز، باعتباره أحد أبرز فلاسفة الفلسفة الحديثة، النزعة التوفيقية التي ظلت مهيمنة وسائدة طيلة قرون.

ابن رشد واسبينوزا:

الفلسفة والدين بين الاتصال والانفصال في فلسفتها

لم يكن البحث في مشكلة الحكمة والشريعة، العقل والنقل، الفلسفة والدين، لدى كل من ابن رشد واسبينوزا مسألة عارضة. فالمنتبع لتاريخ تطور التفكير الإنساني وتطور المجتمعات سيلاحظ أن الدين، بما هو نظرة للحياة تمد الإنسان بقاعدة للسلوك، ظل يهيمن، حيناً، على كل مظاهر الحياة، بأساطير نفوذه بذلك فتكيف الفنون والمعارف والعلوم لتتلاءم معه، وهو ما حدث خلال المرحلة القروسطية، ويُتجاوز أحياناً أخرى فتنهار سلطة الدين، أو بتعبير أصح سلطة الكهنة،

³ برتراند راسل، حكمة الغرب، الفلسفة الحديثة والمعاصرة، ترجمة فؤاد زكريا، الجزء الثاني، طبعة ثانية، يوليو 2009، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت

⁴ F. Biasutli, La dottrina della scienza in Spinoza, Bologne, 1979 أورده:

فرانسوا مورو، إسبينوزا والإسبينوزية، ترجمة جورج كتوره، دار الكتاب الجديدة المتحدة، 2008، بيروت، لبنان، ص 56

أمام ضربات مطرقة الفلسفة والفنون والمعارف والعلوم في حركة معاكسة تعيد للعقل فعاليته. لذلك عقدنا العزم على استكشاف هذا الأمر انطلاقاً من كتابين مؤسسين للنظرة العقلانية مع التراث وإن اختلفت خلفيتهما مواقفهما.

يلجأ ابن رشد إلى القرآن باعتباره النص المؤسس للتصور الكوني الإسلامي لتبرير أحقية الفلسفة في الوجود. هذه الشرعية المفترضة التي يحاول النص الرشدي البحث عنها والتأصيل لها، وفقاً لمنظورنا، لن تتحقق في سياق اعتمد أساساً على النقل إلا من خلال نهج يحث على النظر الشرعي اعتباراً لهدف إيماني/ تأملي؛ فبالنسبة لابن رشد فإن الموجودات "كلما كانت المعرفة بصنعها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم، وكان الشرع قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وحث على ذلك"⁵. جواباً على سؤال هل أوجب الشرع الفلسفة يورد ابن رشد الآية القرآنية ((فاعتبروا يا أولي الأبصار))⁶ للبرهنة على وجوب استعمال القياس العقلي وآية ((أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء))⁷ للحث على النظر في الموجودات. بهذا المعنى يصبح القياس والنظر من جملة ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

وعموماً يكون إسبينوزا قد تقدم في هذا النقاش بعد ذلك بقرون. فعودة إسبينوزا للكتاب المقدس تستوجب، نظرياً، البحث عن أصل الاعتقاد بقضية/ إلهية الكتاب. بالنسبة لإسبينوزا فإن كل عمل مجهول الأسباب يصنف كعمل إلهي لاعتقاد العامة أن الخروج الظاهر على نظام الطبيعة دليل على وجود الله، لذلك يبدو التفسير العلمي بمثابة إلغاء لله. فالعامة، من منظور إسبينوزي، يتخيلون قدرتين متميزتين: قدرة الله وقدرة الأشياء الطبيعية، وهو ما يفسر اعتبار الحوادث الطبيعية الخارقة معجزات/ أعمالاً إلهية قاهرة لقدرات الطبيعة. فبدافع الورع الديني أهمل اليهود العلة الجزئية وفوضوا كل شيء إلى الله وهذا ما سينعكس على تصورهم للكتاب المقدس... فمثلاً الربح مال أعطاه الله إياهم، وبنفس المعنى يكون الله هو الذي هيأ قلوبهم إن هم رغبوا في أي شيء، وحتى عندما يخطر ببالهم شيء ما يكون الله هو الذي تحدث إليهم. بهذا المعنى يكون الوحي، في نظرنا، أفكاراً ذاتية أرجعت إلى الله ليس إلا.

ويمكن القول أن فكر الله لدى الأنبياء ليس سوى خيالهم؛ ويتخذ تمظهرات الكلمات أو الصور التي تكون حقيقية مرة وخيالية مرة أخرى. وهذا ما من شأنه أن يزيل الدهشة التي يمكن أن تعترى المرء وهو يجد روايات تستعمل لغة وصفها إسبينوزا بالمعيبية والغامضة "فلقد رأي ميخا الله مستويا على العرش، ورأه دانيال عجوزاً متلفحاً بالبياض، ورأه حزقيال ناراً، ورأى تلامذة المسيح الروح القدس هابطة في صورة حمامة، ورأها الحواريون في صورة السنة من النيران. وأخيراً فقد رأى بولس نورا ساطعاً في لحظة تحوله إلى العقيدة. هذه الرؤى تتفق جميعاً مع تصورات العامة لله وللأرواح. وأخيراً، فلما كان الخيال مبهماً ومتقلباً، لم تبق النبوة دائماً ماثلة أمام الأنبياء، ولم تتكرر باستمرار، بل كانت نادرة للغاية، أي أنها لم تعطى إلا لعدد قليل من الناس، بل لا تحدث عند هذا العدد القليل إلا نادراً"⁸. إن النبوة لا تمنح للأنبياء علماً بل إنها تتركهم على آرائهم السابقة باعتبارها نتاجات لعصرها. والنتيجة التي يخلص إليها إسبينوزا هي أننا "لسنا ملزمين بالإيمان بالأنبياء إلا فيما يتعلق بغاية الوحي وجوهره. أما فيما عدا ذلك فيستطيع كل فرد أن يؤمن بما يشاء بحرية تامة"⁹. هكذا يكون إسبينوزا قد تخطى حدود المسموح له به، بينما اقتصر ابن رشد على النظر/ التفلسف من الداخل أي من داخل النص في محاولة للتوفيق بين الفلسفة والدين. ويذكر إسبينوزا أن الخيال الخصب شرط قيام النبوة/ الوحي خلافاً لابن رشد الذي يوظف النبوة دون محاولة تفسيرها. وهو ما يبرز أن إسبينوزا، مستثمراً التحولات العلمية

⁵ ابن رشد، فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تحقيق ألبير نصري نادر، دار المشرق، 1968، بيروت، لبنان، ص

27

⁶ سورة الحشر، الآية 2

⁷ سورة الأعراف، الآية 184

⁸ باروخ إسبينوزا، ترجمة حسن حنفي، رسالة في اللاهوت والسياسة، المكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، ص 144

⁹ نفس المرجع، ص 168

والفكرية والسياسية بعد قرون من ابن رشد، قد تقدم خطوات هائلة في تفسير الوحي، رغم أنهما لم يسلمتا معا من توجيه سهام رجال الدين صوبهما.

والآن نتناول كيفية تعامل كل من ابن رشد وإسبينوزا مع الكتاب. فبعد البرهنة، شرعياً، على وجوب النظر بالعقل في الموجودات ينتقل ابن رشد إلى إبراز ضرورة استخدام القياس العقلي بما هو أتم أنواع القياس. فمثلاً أن القياس الفقهي وأنواعه هو شيء استنبط بعد الصدر الأول دون أن يعتبر بدعة فكذلك "يجب أن نعتقد بالنظر في القياس العقلي"¹⁰. ويمكن للنظر البرهاني أن يؤكد ما ورد في الشرع فيكون موافقاً له، أو أن يخالفه ليتوجب بناء على ذلك القيام بالتأويل ليتناسب النص مع نتائج البرهان العقلي، علماً أن التأويل حكر على الخاصة من أهل التأويل اليقيني الذين يقول عنهم ابن رشد: "هؤلاء هم البرهانيون بالطبع والصناعة، أعني صناعة الحكمة"¹¹ ولا يجب أن يمتد إلى العامة فيؤدي إلى إفساد عقيدتهم إذ أن هذا الصنف "ليس هو من أهل التأويل أصلاً، وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب"¹². ويعود ابن رشد إلى الآية القرآنية (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)¹³ ليستخرج منها تعدد مستويات الناس، وتفاضلهم في التصديق فـ "منهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقوال الجدلية تصديق صاحب البرهان بالبرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم يصدق بالأقوال الخطائية كتصديق صاحب البرهان بالأقوال البرهانية"¹⁴. وذلك لإبراز ضرورة اعتماد سبل مختلفة لدعم الإيمان والتصديق لدى الناس.

ونجد أن الرهان الإسبينوزي كان منصبا حول التأسيس النظري لقواعد المنهج المطابق للمنهج المتبع في تفسير الطبيعة. يستند هذا المنهج المعتمد في تفسير الكتب المقدسة على الملاحظة وجمع المعطيات اليقينية، وصياغة تعريفات الظواهر "فكذلك يتحتم علينا في تفسير الكتاب أن نحصل على معرفة تاريخية مضبوطة، وبعد الحصول عليها أي على معطيات ومبادئ يقينية، يمكننا أن ننتهي من ذلك إلى استنساخ مشروع لفكر مؤلفي الكتاب. وعلى هذا النحو (أعني إذا لم نسلم بمبادئ وبمعطيات لتفسير الكتاب ولتوضيح محتواه إلا ما يمكن استخلاصه من الكتاب نفسه ومن تاريخه النقدي) – يستطيع كل فرد أن يتقدم في (بحثه) دون التعرض للوقوع في الخطأ كما يستطيع أن يكون فكرة عما يتجاوز حدود فهمنا، يكون لها نفس اليقين الذي لدينا عما نعرفه بالنور الطبيعي"¹⁵. ونوجز مرتكزات الفحص التاريخي للكتب المقدسة في:

- فهم طبيعة وخصائص اللغة التي تحدث بها مؤلفو أسفار الكتاب المقدس،

- تجميع آيات كل سفر، وتصنيفها في موضوعات أساسية محدودة. والتركيز على معاني النصوص لا حقيقتها اعتماداً على استعمال اللغة، أو على استدلالات مبنية على الكتاب وحده، أي فهم المعنى من السياق لا بالعقل (عندما قال موسى إن الله نار فإن هذا القول يجب أن نفهمه فهما مجازياً لأن موسى قد ذكر في نصوص أخرى أن الله لا يشابه الأشياء المرئية)،

- ربط كتب الأنبياء بجميع الملابس الخاصة التي حفظتها لنا الذاكرة، سيرة مؤلف كل كتاب وأخلاقه، والغاية التي كان يرمي إليها، ومن هو، وفي أي مناسبة كتب كتابه، وفي أي وقت، ولمن، وبأية لغة...

¹⁰ ابن رشد، فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، تحقيق ألبير نصري نادر، دار المشرق، 1968، بيروت، ص 30

¹¹ نفس المرجع، ص 52

¹² نفس المرجع، ص 52

¹³ سور النحل، الآية 125

¹⁴ ابن رشد، مرجع سابق، ص 34

¹⁵ باروخ إسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ص 242

- البحث عن أكثر الأشياء شمولاً: كوجوب أن الله واحد قادر قدرة مطلقة، وتجب عبادته وحده، يرى الجميع ويحب من يعبدونه ويحبون جارهم كما يحبون أنفسهم... فمنهج تفسير الكتاب المقدس "طريق يقيني لمعرفة معناه الحقيقي"¹⁶.

وإذا كان كل من ابن رشد وإسبينوزا قد حددا مناهج عقلية للتعاطي مع النص الديني، فإن منهج إسبينوزا أريد له أن يكون أكثر عمومية وشيوعاً لدى الناس لا حكراً على الفلاسفة، لأن السلطة العليا، كما يقول في تفسير الكتاب ترجع إلى كل فرد. أما بالنسبة لابن رشد فإن التأويل يجب أن يظل حكراً على الخاصة من أهل البرهان.

ما يريده ابن رشد من فعل الفلسفة هو أن يكون نوعاً من "النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع". وما يخشاه إسبينوزا هو أن يؤدي التطرف في التقديس إلى تحويل الدين إلى خرافة، وأن ينصرف الناس إلى عبادة الورق بدلاً من كلام الله. فالكتاب المقدس لا يعلم الفلسفة بل يدعو إلى التقوى وحدها. أما من يجعل العقل والفلسفة خادمين للاهوت فإنه يضطر إلى قبول الأحكام المسبقة في العصور الماضية على أنها أمور إلهية. ووفقاً لذلك يكون إسبينوزا قد ميز بين الكتاب بما هو جملة روايات وأحداث ووقائع وأوامر وتفسير عرضت للتحريف، والكتاب بما هو في جوهره طاعة وتقوى يجب أن تكونا الغاية الحقيقية لكل دين. وانطلاقاً من مبدأ الإقرار بوجود أسمى يجب العدل والإحسان نحو الجار، وهي غايات الدين الحقيقية، يمكن أن تُحدد باقي المبادئ المشتركة بين الناس كافة بغض النظر عن دينهم إذ يتوجب الإقرار أن:

- 1- الله هو الموجود الأسمى، ونموذج الحياة الحقة،
- 2- الله وحده لا شريك له، له الرفعة والسمو على غيره من الموجودات،
- 3- الله حاضر في كل مكان ويرى كل شيء،
- 4- الله الحق والقدرة المطلقة على كل شيء،
- 5- عبادة الله تكون في العدل والإحسان،
- 6- لا يتم الخلاص إلا لمن يطبقون هذه القاعدة، على حين يهلك من يعيشون تحت سيطرة الذات،
- 7- الله يغفر للتائبين خطاياهم.

هذا العرض للمبادئ المشتركة للإيمان لدى إسبينوزا من شأنه أن يدفعنا إلى الانتقال للحديث عن الفلسفة لدى ابن رشد، فهي يمكن أن تعزز الإيمان المستند إلى النظر الذي تتحقق عبره المعرفة المثلى بالصانع إن لم يكن "فعل الفلسفة شيئاً أكثر من النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أعني من جهة ما هي مصنوعات، فإن الموجودات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعها"¹⁷. تتحدد كيفية التوفيق بين الحكمة والشريعة عند ابن رشد بالرجوع إلى الكتاب من غير أن يتأول المرء من ذلك شيئاً، إلا إذا كان التأويل ظاهراً بنفسه، غير أن التأويل يجب أن يقوم به أهل البرهان على أي حال. ومن خلال ذلك يتبين لنا أن نظرة ابن رشد الفلسفية للدين وإن كانت متقدمة فإنها لم تتجاوز الإطار المحدد لها في القرون الوسطى لجعلها خادمة للدين.

ويخلص إسبينوزا إلى انفصال الفلسفة عن الدين قائلاً "وأخيراً بقي أن نبين الآن أنه لا توجد أية صلة أو قرابة بين الإيمان واللاهوت من ناحية وبين الفلسفة من ناحية أخرى. وهذا أمر لا يمكن أن يجهله من يعلم غاية كل من هذين الباحثين وأساسه. إذ أنهما متعارضان أشد التعارض. فغاية الفلسفة هي الحق وحده، وغاية الإيمان كما بينا من قبل، هي الطاعة والتقوى وحدهما. ومن ناحية أخرى فإن الأسس التي تقوم عليها الفلسفة هي الأفكار المشتركة، وهذه يجب أن

¹⁶ باروخ إسبينوزا، نفس المرجع، ص 250

¹⁷ ابن رشد، فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ص 27

تستخلص من الطبيعة وحدها. أما الإيمان فأسسه هي التاريخ وفقه اللغة، وهي أسس ينبغي أن تستمد من الكتاب والوحي وحدهما".¹⁸ فللعقل مملكة الحقيقة والحكمة، ولللاهوت مملكة التقوى والخضوع. ويقصد إسبينوزا باللاهوت الوحي من حيث أنه يشير إلى الغاية التي يرمي إليها الكتاب - أي الطاعة والتقوى - وهو مبدأ ليس بمستطاع المرء البرهنة على صحته أو بطلانه عقلا، لكن من الممكن تبرير قبول العقيدة الموحى بها أخلاقيا. وتتمثل الدعائم التي سعى الأنبياء بموجبها للبرهنة على سلطتهم في الخيال الخصب، والآية والنفس الميالة إلى العدل والخير. وتتفق تعاليم الأنبياء الخلقية مع العقل، فالاتفاق حاصل بين كلام الله المنقول إلينا عبر الأنبياء وكلام الله الموجود في أعماقنا. وعلى حين أنه لا يمكن البرهنة على العقيدة الأساسية التي يقوم عليها اللاهوت ببرهان رياضي، فإن قبولها أمر مشروع إلى أبعد حد. وأخيرا يعين إسبينوزا أفضل طرق الحكم وأكثرها اتفاقا مع الطبيعة الإنسانية تفاديا لانتشار التهاون والنفاق، ولضعف السلطة السياسية، ولعدم خضوعها لدعاة الفتن. إن هذه الطريقة إنما تقوم أساسا على الاعتراف بكل فرد لحرية في الرأي، داخل الدولة الحرة، وتشجيع التعايش بين الناس رغم اختلاف الآراء وتعارضها.

على سبيل الختم:

حاولنا قدر الإمكان، تناول إشكالية الفلسفة والدين بين الاتصال والانفصال، وتبين لنا أن الأمر يتعلق بإشكال مركزي في تاريخ الفلسفة اختلفت المواقف المتخذة إزاءه باختلاف البيئات العلمية والشروط الفكرية والاجتماعية والحقب الزمنية. لذلك، ونحن نصل إلى نهاية هذه المقالة، نذكر بما يلي:

- لم تخرج مواقف ابن رشد في عموميتها عن الإطار القروسطي، وإن كانت تمثل قيمة مضافة للتراث الإنساني في انتصارها للعقل والبرهان،
- استطاع إسبينوزا أن يتقدم في البحث في المسألة، وأن يجسد بذلك روح الفلسفة الحديثة الموغلة في النقد والمساءلة،
- أسس ابن رشد للتأويل، لكنه ظل محكوما بطابع نحوي/ خاص،
- أسس إسبينوزا لمنهج متقدم في تفسير الكتب المقدسة، وطبقه على الكتاب المقدس من خلال كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة"، وأراد، من خلاله، أن يعمم حق الجميع في التفسير كي لا تظل سلطة رجال الدين قائمة،
- كان لدى كل من ابن رشد وإسبينوزا رؤى منفتحة تعتبر بحق إسهامات جبارة في تاريخ تطور الفكر الفلسفي..
- ظل ابن رشد محكوما بمرجعية توفيقية،
- اعتبر إسبينوزا أن الفلسفة والدين محكومان بالانفصال لاختلافهما كليا من حيث غايتهما؛ أي غاية الدين المتمثلة في التقوى وغاية الفلسفة المتمثلة في الحق وحده.. إلخ

في واقع الأمر، إن الإشكالية موضوع العرض، لازالت، في واقعنا، عالقة. كما أنها تحتفظ براهنيتها على المستويين النظري والعملي. ويكفي أن نتأمل أنماط التفكير السائدة، وحقيقة الوضع الراهن، ليتبين لنا باللموس أن الإشكالية لا تزال بحاجة إلى المزيد من البحث والتأمل الفلسفيين.

¹⁸ باروخ إسبينوزا، مرجع سابق 363